

البعد الفلسفي للعمل الفني عند جورج لوكاتش

The philosophical dimension of the artwork of George Lukács

دحامني سعيدة¹

¹ جامعة الجزائر 2 - أبو القاسم سعد الله (الجزائر)،

iyrr2022@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/12/10 تاريخ القبول: 2023/01/15 تاريخ النشر: 2023/03/05

ملخص:

اختلفت في هذا العصر الفلسفة بالأدب خصوصاً على يد الفلاسفة الوجوديين، حتى أصبحت «فلسفة الفن» في القرن العشرين مثار اهتمام كبير لدى كلّ من الفلاسفة والأدباء، كما صارت فرعاً هاماً من فروع البحث الفلسفي لدى أصحاب المذاهب الفلسفية على اختلاف اتجاهاتهم. خير مثال عن فلاسفة الفن في القرن العشرين نجد: جورج لوكاتش *George Lukacs* الذي وضع الخطوط الرئيسية في علم الجمال ونظرية النقد الأدبي.

نجد أن الواقعية كانت هي مدخله الأساسي للوصول إلى تعريف الفن حيث استخدم الجدل الهيجلي. إن العمل الفني عنده، وحدة كاملة محتواة في ذاتها لا تحتاج إلى شيء آخر لأنّه ينفذ إلى جوهر الواقع، كما يركّز لوكاتش على الانتقاء في العمل الفني، ما يُدركه الفنان ويعكسُه في عمله الفني إنّما هو حركة التاريخ، إنّهُ شمولية حركة الواقع، هذه الشمولية هي معنى الموضوعية.

كلمات مفتاحية: الفن، الجمال، فلسفة الفن، الواقع، الجدل، حركة، التاريخ، الموضوعية، الشمولية.

Abstract:

In this age, we notice that philosophy mixed up with literature, especially at the hands of existential philosophers. “The philosophy of art” became in the twentieth century a domain of big importance, as well an important branch of philosophical research. As best example of art philosophers, we find George Lukács who put the primary lines in Aesthetics and the theory of literary criticism.

He used realism in his approach to reach for the definition of art where he used Hegel’s controversy. A work of art that has a complete unit contained within it self that does not need anything else because it is implemented in the essence of reality. Lukács focuses on artwork selection also, on what an artist realizes and reflects in his artwork. It is the movement of history, the inclusivity of the movement of reality, which is the meaning of objectivity.

Keywords: Art, Aesthetics, philosophy of art, reality, controversy, reflection, movement, history, objectivity, inclusivity.

المؤلف المرسل: دحامني سعيدة

1. مقدمة

لقد أولت الفلسفة الغربية المعاصرة في القرن العشرين اهتمامًا كبيرًا للحقل الفني والجمالي. و إذا كانت أهم ملامح هذا القرن هو ما شهده من ثورات علمية و تقنية، أثرت في مجرى التاريخ الإنساني برمته، فإنه شهد أيضًا ثورة في الحقل الجمالي، تجلّت بشكل بارز في تلك المذاهب و الحركات الفنية التي انتشرت منذ بداية القرن العشرين، ضمن سياق تاريخي عرف أكثر من أزمة، كالحربين العالميتين و صعود الأنظمة الشمولية و الأزمات الاقتصادية و الفكرية التي عرفها العالم الغربي المعاصر، و التي انعكست على الحقل الجمالي أو الفني بشكل أو بآخر.

البعد الفلسفي للعمل الفني عند جورج لوكاتش

لذلك لا يمكن فصل الجماليات المعاصرة لدى كلّ من هايدجر و سارتر و لوكاتش و أدورنو و ماركوز، و غيرهم من الفلاسفة المعاصرين. هذا، ويمكن أن نشير، باختصار شديد، إلى بعض المواقف الفلسفية، ولا سيّما التي أثّرت في الفكر الفلسفي المعاصر عمومًا والحقل الجماليّ على وجه الخصوص. (كمال بومنيّر، 2013، صفحة 111) فعلى سبيل المثال لوكاتش، الذي اهتم كثيرا بالقضايا الجمالية في الفكر الماركسي المعاصر.

ومن هذا المنطلق ما عسانا إلا أن نطرح السؤال التالي: ما هو البعد الفلسفي للعمل الفني والجمالي عند لوكاتش؟

يهدف هذا المقال إلى الوقوف على العمل الفني والجمالي عند لوكاتش وتبيان نظرياته لفهم وتفسير عمله الفني من حيث طبيعته، شروطه وأساليبه. ذلك لأن عمله قد لقي اهتماما كبيرا في الدراسات الفلسفية خصوصا في القرن العشرين، حيث فتح المجال واسعا لطرح إشكاليات يمكن ان تقودنا لمعرفة حقيقة الظاهرة الجمالية والإبداع الفني من خلال أبعاده الفلسفية.

تم الاعتماد في هذا المقال على منهج التحليل لبعض أفكاره الجماليّة، والتعامل عن قرب مع بعض نصوصه الفلسفية. حيث الوظيفة الجماليّة عند لوكاتش تكمن في مواجهة مختلف أشكال التشيؤ التي تعرفها المجتمعات المعاصرة، وهي ناتجة عن سيطرة النظام الرأسمالي.

لذلك يعدّ العمل الفني والجمالي في هذا العصر وسيلةً للخلاص من الوضع المزري ومن المعاناة التي يعيشها في حياته اليومية.

2. السياق الفلسفي والتاريخي لفلسفة جورج لوكاتش

1.2 مسيرته الفكرية

جورج لوكاتش (1885 – 1971) فيلسوف مجري معاصر، يعدّ أحد أقطاب الفكر الماركسي، تأثر بهيجل وماركس و فيبر و دلتاي، و هذا ما يظهر في واحد من أهم أعماله الفلسفية «التاريخ و الوعي الطبقي» عام 1923، الذي عالج فيه موضوع التشيؤ. بدأ يلمع في الحقل الجماليّ حين ظهر له مقال بعنوان «تطوّر الدراما الحديثة» عام 1908، كان يرى بأنّ العمل الفنّي هو الأداة التي يمكن أن يجد فيها الإنسان نفسه وقد تحرّر من مختلف مظاهر التشيؤ والاغتراب لأنّ جوهر العمل الفنّي يكمن في أنّه ينقل الإنسان من واقعه اليوميّ المباشر إلى «الكلية» ليرتفع إلى مصافّ الإنسانية، أو من التشيؤ إلى الحرية. من أهمّ أعماله: الروح والأشكال عام 1911 ونظرية الرواية 1920 ومعنى الواقعية المعاصرة 1957، والرواية التاريخية، ودراسات في الواقعية والجمالية (كمال، 2013، صفحة 145).

كتابه الرئيسي «التاريخ والوعي الطبقي» عام 1923 محاولة لإعادة صياغة الماركسية صياغة هيكلية، وكان أول الذين اكتشفوا إمكان تفسير النظرية الماركسية باستخدام الجدل الهيجلي، ترسخت نظريته بنشر كراسات ماركس الاقتصادية والفلسفية عام 1944.

لقد كان لوكاتش أن يكون واحدًا من أعضاء مدرسة فرانكفورت لأسباب عديدة، أهمها الحرص على الانتماء إلى التراث الهيجلي الماركسي بما يخدم في وعي ظروف المشروع الثقافي الغربي.

غير أنّ ما أبعده عن تلك المدرسة، هو تراؤحه بين الالتزام السياسي الإيديولوجي المباشر وما جرّ عليه من مشكلات ومتاعب شخصية وبين الإخلاص للبحث الفلسفي الجاد الذي أتاح له أن يقدم بعض أهم الأعمال الفكرية في هذا العصر.

البعد الفلسفي للعمل الفني عند جورج لوكاتش

لم يشارك لوكاتش مشاركة حقيقية في المجال السياسي، و إنما كان مخلصاً لاهتماماته المتمثلة في الفلسفة و علم الاجتماع، و لكن الجزء الأعظم من اهتماماته كان يتركز حول «علم الجمال»، لذا فإن كتاباته في هذه الفترة المبكرة من حياته كان يغلب عليها طابع دراسات النقد الأدبي و علم الجمال. (رمضان، 1991، صفحة 22).

في صيف عام 1931 رحل لوكاتش إلى برلين، حيث كان مشغولاً بوضع الخطوط الرئيسية في علم الجمال ونظرية النقد الأدبي، الذي كان هذا حُلْمُه الحقيقي. أما خلال الفترة الأخيرة من حياته فقد عكف على إكمال مشروعاته في "علم الجمال"، فأصدر: «إسهامات في علم الجمال» و «الطبيعة النوعية للإستيطيقا» وأكمل صدوره عام 1969 وكان قد بدأ يفكر في كتابة كتاب عن "الأخلاق" لكنّه توفي في "بودابست" في: 04 جوان 1971 عن عمر يناهز السادس والثمانين.

لقد أخذت كتاباته الجمالية تتدفق ولم تتوقف حتى لحظة وفاته حيث جاءت على النحو التالي: «تطوّر الرواية الحديثة» 1911؛ «علاقات الذات بالموضوع في علم الجمال» 1917؛ «نظرية الرواية» 1910؛ «الرواية التاريخية» 1936؛ «مشكلات الواقعية» 1939؛ «مشكلات المذهب الواقعي» 1955؛ «خصوصية الجمالي» 1966 بالإضافة إلى عدّة مقالات حول هذا العلم التي تُرجمت إلى عدة لغات.

2.2 الإنسان والقيم الجمالية

إنّ دراسة علم الجمال هي دراسة لأرقى أعمال الإنسان في أسمى معانيها الفكرية والعاطفية لأنّها تعكس نشاطاته ومشاعره وانفعالاته ومدى العلاقة بين هذه الأعمال الفنية تصويرًا ونحتًا وأدبًا وموسيقى مع الإنسان الفنان الذي أنتجها من جهة، والإنسان الذي يتذوّقها سمعًا وبصرًا من جهة أخرى.

من هنا تبدو أهميّة دراسة علم الجمال والجمالية من خلال علاقتنا الوثيقة مع الإحساس الجمالي والشعور بالحياة التي تدفع بنا إلى التأمل والتفكير وحبّ العمل والتجديد والابتكار.

إنّ الشكل الجميل هو الشكل الذي يحيلنا إلى أماكن أخرى تقوم على طبيعة العلاقة الكائنة بين هذا الشكل الجميل وما يدّل عليه، أي الإحالة من الوجود كصورة عيانية إلى شيء آخر أكثر سموا يدرك بالعقل. وقد ميّز المفكرون الجماليون بين نوعين من الجمال:

– الجمال الطبيعي الذي أوجدته الطبيعة؛

– الجمال الفني الذي أوجده الانسان.

فالأشياء بحدّ ذاتها في الطبيعة قد تكون جميلة، ولا نقصد جمالها بمقدار ما تكون نافعة، فالأشياء المرتبط جمالها بمنفعتها أو فائدتها يزول جمالها بزوال فائدتها، وهذه لا تدخل حيّز الفنون الجميلة، إذ يقول "كانط": «إنّ الجمال الطبيعي شيء جميل، والجمال الفني تمثيل جميل لشيء ما. الشيء ليس بصورة ضرورية جميلا»، ويؤكد "اوجين دي لا كروا": "أنّ الطبيعة معجم وليس كتابا، وهي مواد للبناء وليست بناء!

تعدّ "الجمالية؛ **Esthétique**" في الفنون الحديثة معرفة متخصصة بالجمال الفني دون الجمال الطبيعي، فاتخذ الشكل الفني طريقا يسلكه إلى الجمال عبر

البعد الفلسفي للعمل الفني عند جورج لوكاتش

أساليب عديدة كالانطباعية والتكعيبية والسريرية والتعبيرية والتجريدية، وما رافق هذه الاتجاهات والتيارات والمدارس من تفرّعات.

كانت الأساليب المتعدّدة لإظهار الجمال من أهم ميزات الحداثة بينما كانت قبل اصطلاح الحداثة قائمة على مفهوم المحاكاة أي بقدر ما يكون الشكل الفني مطابقاً للشكل الواقعي بقدر ما يكون جميلاً، بالتالي أصبح علم الجمال كما جاء في الموسوعة العربية هو: علم يحلّل المفاهيم والتصورات الجمالية. "إنّه علم ماهية الوعي الجمالي ووظيفته بصورة عامة، وعلم الفن وماهيته ووظيفته باعتبار أنّ الفن أرقّ مظهر له، بصورة خاصّة، وكلمة إستيطيقا يونانية الأصل (ايسثيزيس؛ Aisthésis) وتعني الإحساس أو الإدراك الحسي القائم على أساس الخيال والشعور كوسيلة لتمييز موضوعات الجمال".

بينما يرى الدكتور "جميل صليبا" في المعجم الفلسفي أنّ علم الجمال علم يبحث في شروط الجمال ومقاييسه ونظرياته وفي الذوق الفني وأحكام القيم المتعلقة بالآثار الفنية، وهو باب من الفلسفة وله قسمان: قسم نظري عام وقسم عملي خاص: 1- القسم النظري العام: يبحث في الصفات المشتركة بين الأشياء الجميلة التي تولّد الشعور بالجمال، فيحلّل هذا الشعور تحليلاً نفسياً يفسّر طبيعة الجمال تفسيراً فلسفياً و يحدّد الشروط التي يميّز بها الجميل من القبيح، فهو إذن علم قاعدي أو معياري كالمنطق والأخلاق، فكما أنّ المنطق يحدّد القوانين التي يعرف بها الصحيح من الفاسد، كذلك علم الجمال فهو يحدّد القوانين التي يميّز بها الجميل من القبيح.

2- القسم العملي الخاص: يبحث في مختلف صور الفن وينقد نماذجه المفردة، ويطلق على هذا القسم إسم النقد الفني، وهو لا يقوم على الذوق وحده بل يقوم على العقل أيضاً لأنّ قيمة الأثر الفني لا تقاس بما يولده في النفس من الإحساس فحسب، بل تقاس بنسبته إلى الصّور الغائية التي يتمثّلها العقل (سائد، 2020، الصفحات 05-06).

إن موضوعية العلاقات المتبادلة بين الفنّ والحياة شغلت مكانةً أكبر في الأدب، لأنه كلّما وجد الفنانون الأصليون والشرفاء أنفسهم معزولين أكثر داخل المجتمع البرجوازيّ، كلّما كانوا يقومون بتجربةٍ عميقةٍ على مستوى المشكلات الواقعيّة الشخصية والإنسانيّة التي يولّدها هذا العزل. يضطر الكتاب غير قادرين على تخطّي حدود المجتمع البرجوازيّ والذين ينحصر أفقهم بفكرهم الطبقيّ، إلى اعتبار هذه المشكلة «مشكلة ماورائيّة خالدة» لعلاقات الفنّ عمومًا بالحياة على وجه العموم وليس كمسألةٍ مرتبطةٍ بمرحلةٍ تاريخيّةٍ من التطوّر الاجتماعيّ. إنّ تضييقًا كهذا وتشويهًا كهذا لتلك المشكلة يؤدّيان إلى تصوير الفن كما لو كان مبتعدًا عن الحياة، معاديًا للحياة. لقد جرى الإعلان في عصر الانحطاط البرجوازيّ أنّ الفن يسكن «برجًا عاجيًا» بعيدًا من كل اهتزازات الحياة (جورج، 1977، صفحة 300).

3. النظرية الفنية والجمالية عند لوكاتش

1.3 الانعكاس في العمل الفني

نجد مقالة «الفن والمجتمع» يعكس لبّ علم الجمال عنده - حيث الواقعية هي مدخله الأساسي للوصول إلى تعريف الفن - حيث سيخدم الجدل الهيجلي. يقول في كتابه «إسهامات في علم الجمال» أنّ «كلّ انعكاس هو عرض لشيء واقعي، وهو في حالة الفن، الطبيعة الجوهرية للإنسان».

هكذا يفرّق "لوكاتش" بين الانعكاس في العلم، والانعكاس في الفن، فالأول تجريدي والثاني عيني، والأول متشابك مع غيره على حين أنّ "العمل الفني" وحدة كاملة محتواة في ذاتها لا تحتاج إلى شيء آخر لأنّه ينفذ إلى جوهر الواقع، بمعنى أنّ العلم يحتاج إلى غيره في حين أنّ الفن مكتفٍ بذاته.

هذا الفن الذي يعكس تناقضات الواقع الخارجي ولكنه يبحث عن حلها الذي يسميه "لوكاتش" بالنمط في العمل الفني.

البعد الفلسفي للعمل الفني عند جورج لوكاتش

التفكير والعمل والتبادل وتنظيم المعاملات، كلّها - وغيرها - محدّدات أساسية للوجود الإنساني. ومع ذلك، فإنّ وجود الشخصية الإنسانية لا يحتاج إلى تلك العناصر الضرورية وحدها فقط، بل يحتاج أيضا لمعايير ومبادئ وغايات يمكن للإنسان معرفتها سواء أكان باحثا أو فاعلا اجتماعيا، لأنّها توجد في أساس كل تصرفاته وسلوكه اليومي وعلاقاته بالآخرين، هذه المعايير والغايات هي التي تشكّل ما يسميه الفلاسفة باسم: القيم.

تظهر القيم كمبادئ خاصّة بالحياة الإنسانية، أي تعطيها طابع تميّزها وانفصالها عن كل ما هو طبيعي خالص. فلا يمكن اعتبار الإنسان إنسانا إلاّ انطلاقا من القيم التي تسود حياته وسلوكه الفردي والاجتماعي، والتي تتجسّد - رغم طابعها المثالي العام - في شكل سلوكات وعلاقات اجتماعية ومؤسّسات ثقافية. إنّها هي التي تعطي معنى ما لحياة الإنسان.

لقد تساءلت الفلسفة منذ القدم عن قيمة ما يأخذه الإنسان من الطبيعة و من الثقافة و من المجتمع، و قد رافق هذا التساؤل عن القيمة تساؤل عن القواعد التي يمكن أن تحدّد سلوك الإنسان و توجّهه في اتجاه ما أسماه "سبينوزا": «الحفاظ عن الكينونة الإنسانية» و لذلك ارتبط الخطاب الفلسفي حول القيم وخاصّة القيم الأخلاقية، بطابع معياري الذي ينبغي أن يتحقق في كل فكر و سلوك إنساني .

لكن ليس الإنسان كائننا أخلاقيا فقط، بل هو كائن مبدع أيضا وتلك هي مفارقتة. وحينما نقول الإبداع، فإنّنا نستدعي قيمًا إنسانية تتمحور حول مفهوم الجمال والمتعة والذوق الفني، أي قيمة تحرّر الإنسان من انشغالات الحياة اليومية وضروراتها.

بواسطة الإبداع لا يحدّد الإنسان الأشياء، بل يحدّد ذاتها أيضا. وإذا كانت القيم بشكل عام تعطي معنى لحياة الإنسان داخل العالم والأشياء، فإنّ الإنسان المبدع هو الذي يعطي ذلك العالم وتلك الأشياء قيمة جديدة. وعموما، بواسطة

دحامني سعيدة

الإبداع الفني ينفذ الإنسان داخل عالم جديد يفتحه على قيم جديدة تثير فيه مشاعر المتعة والارتياح: إنَّها القيم الجمالية.

نجد اهتمام الفلاسفة بدراسة «الظاهرة الجمالية» قد سار جنبًا إلى جنبٍ مع اهتمامهم بدراسة الكون أو الوجود بصفة عامة.

الواقع أنَّ الفيلسوف إنسان متفتح لشتى تجارب الإنسانية، إنَّه حين يحاول تفهِّم «الجمال» فهو يريد لفلسفته الجمالية أن تكون دراسة نظرية غايتها المعرفة. عالم الجمال لا يزعم لنفسه حق توجيه الفنان في عمله، بل هو يقتصر على دراسة «الفن» بوصفه خبرة بشرية توسع من آفاق فهمنا للوجود الإنساني بصفة عامة.

إنَّه يدرس «العمل الفني» باعتباره ظاهرة بشرية تدخل في صميم النشاط الروحي للموجود البشري.

لا شك أنَّ اختلاط الفلسفة بالأدب في عصرنا الحاضر، خصوصًا على يد الفلاسفة الوجوديين أمثال: "سارتر Sartre"؛ "كامي A. Camus" و"غابريال مارسيل G.Marcel" قد عمل إلى حدٍّ كبير على تزايد اهتمام الفلاسفة بالفن عامةً، والأدب خاصةً.

هكذا أصبحت «فلسفة الفن» في القرن العشرين مثار اهتمام كبير لدى كلِّ من الفلاسفة والأدباء، حيث صارت فرعًا هامًا من فروع البحث الفلسفي لدى أصحاب المذاهب الفلسفية على اختلاف اتجاهاتهم. كما يؤكد أيضًا بأنَّ هناك فرق بين العلم والفن، فالأول بناء بالمفاهيم والثاني بناء بالصور، وأنَّه مكتمل في ذاته.

يُركز "لوكتاش" على الانتقاء في العمل الفني، أي أنَّ الفنان منحاز إلى جزئيات يجسِّدها في العمل الفني. ما يُدركه الفنان ويعكِّسه في عمله الفني إنَّما هو حركة التاريخ، إنَّه شمولية حركة الواقع، وهذه الشمولية هي معنى الموضوعية،

البعد الفلسفي للعمل الفني عند جورج لوكاتش

والموضوعية عنده تعني إدراك الحركة الشمولية المختلفة وراء مظاهر الواقع، وأنّ وقوف الفنان عند جزئيات الواقع دون النفاذ إلى لبّه لن يعطيه موضوعية.

كما يرى أنّ الأدب هو إنعكاسٌ للواقع الموضوعي، ومن المهمّ له أن يستوعب هذا الواقع، كما هو بالفعل ولا يقتصر على التعبير عمّا يبدو مباشرة.

فالكاتب يسعى إلى استيعاب الواقع ثم يعرضه كما هو فعلاً أي واقعياً فعلاً. إذ في العمل الفني يكون هناك تشييع، إنّهُ تشييعٌ نحو الموضوعية وبشكل مكثف إذ يقول في مقالته: «ماركس وأنجلز حول علم الجمال».

التشييع للموضوعية يجب أن يوجد مكثفاً في العمل الفني، مكثفاً بوضوح لأنّ موضوع العمل الفني يجري تنظيمه بوعي ويجري تنظيمه على يد الفنان اتجاه هذا الهدف، فالعمل الفني الأصيل موجّه بصفة خاصة نحو تصوير هذا التشييع، وهو يبرز كقوة دافعة كامنة فيه.

إنّ الانعكاس في العمل الفني هو ذو طابع خاص، غنّه قادرٌ على النفاذ إلى جواهر الحياة، بينما يُقدم الانعكاس العلمي صورة مجردة عن العالم إنّهُ في رأي "لوكاتش" (يسلخ الصبغة الإنسانية عن موضوعه) أمّا الانعكاس الفني فإنّه يُمثل الواقع وذلك بالنفوذ غليه عن طريق تخيله، إنّهُ يربط التخيل الإنساني بالواقع وهو (يُضفي الصبغة الإنسانية على موضوعه).

يمكن أن نُميّز نوعين في كتابات "لوكاتش" في النظرية الجمالية، النوع الأول هو تلك الكتابات التي تتناول علم الجمال من خلال مصطلحات العلم نفسه. والنوع الثاني يتمثل في تلك الكتابات النقدية الكثيرة التي قدمها في مجال دراسة الأدب من وجهة نظره الخاصة.

لقد كان يسعى إلى البحث عن الثوابت والمعايير التي ندرس بها الأعمال الأدبية العظيمة مهما اختلف العصر الأدبي والاجتماعي الذي ينتسب إليه. فالنقد الأدبي،

دحامي سعيدة

كما يقصده "لوكاتش"، هو العملية التي بمقتضاها نُحول الأعمال الأدبية من لغة فنية يغلب عليها جانب «التجسيد» إلى لغة تصويرية توضح رؤية العالم لدى الكاتب.

إذا ألقينا نظرة على جملة إنتاج "لوكاتش" الفكري، نجد أنّ معظم كتاباته مرتبطة بعلم الجمال، حتى كتابه: «التاريخ و الوعي الطبقي» يحفل أيضًا برؤيته للفن، فهو في معرض نقده للفكر الغربي، يعيبُ على الفكر الغربي عزله الفني عن نظرية المعرفة، فكان للفن دورا هامشي في حياة الإنسان بينما الفن في رأي "لوكاتش" يأخذ وضعًا مميزًا، بجانب العلم و الدين في إدراك العالم، و إبراز فاعلية الإمكانيات الإنسانية في العالم المحيط بالإنسان.

لذا فإنّ القضايا الرئيسية التي كان يُولّيها اهتمامه هي: الأخلاق و علم الجمال، على أساس أنّ المنهج الجدلي يوضح عدم الانفصال بين المنطق و الأخلاق، و بين الفن و نظرية المعرفة.

الجمال لدى "لوكاتش" ليس مجرد «مقولة فلسفية»، إنّما هو علاقة تتشكل خلال بحث الإنسان عن التناغم و كفاحه ضد أشكال التشيؤ و الاغتراب المترتبة عن تقسيم العمل في المجتمع الرأسمالي.

الجمال عنده قيمة معرفية أيضًا، لأنّه وسيلة لإدراك العالم المحيط بالإنسان. كما يرى أنّ الجميل ليس من اختراع المُخيلة الفنية فحسب، إنّما الجمال الفني يعكس ما هو جميل في الواقع الموضوعي، هذا يعني أنّ "لوكاتش" يبحث عن الجميل فيما هو موجود وليس من اختراع الذات الإنسانية كما كان "كانط" يعتقد، أو في تجاوز الواقع المحسوس كما كان يعتقد "هيجل". إذن فالجمال لديه يوجد في الواقع وجودًا موضوعيًا وهو يوجد في الطبيعة، كما يوجد في المجتمع، لكن وجود الجمال في المجتمع غير جاهز لإدراك البشر، إنّما عليهم أن يصنعوه، فيظهر في حياتهم الروحية و الفنية و الأخلاقية، و هذا يعني ارتباط الوعي بالجميل، و ذلك بمقدار المعرفة التي يبذلها الإنسان من أجل إدراك واقعه و محاولة تغييره لهذا الواقع.

البعد الفلسفي للعمل الفني عند جورج لوكاتش

كما يرى أنّ الجميل لا يتناقض مع النافع تناقضاً تاماً فالفنان يتميز نشاطه عن سائر الأنشطة الإنسانية بكونه حرّاً، إلّا أنّ الجميل يتضمن النافع بالضرورة، لأنّ العمل الفني يجلب لدى مُبدعيه نفعاً مباشراً في تحقيق ذاته، حيث يرى فيه قدرته على الخلق وطاقته الإبداعية.

وعليه نلمس مسألة الانعكاس مسألة رئيسية في مُجمل أعمال " لوكاتش" الجمالية. تُعتبر نظريته في الانعكاس الجمالي هي الإسهام الحقيقي الذي قدمه في علم الجمال، وقد أوضحها في كثير من مؤلفاته كمجموعة المقالات التي تحمل عنوان «الكاتب والناقد» وفي دراسته عن إنجازات "ماركس" و "أنجلز" في علم الجمال. إن "لوكاتش" يرجع بنظرية الانعكاس إلى "أفلاطون" و "أرسطو". حيث يصبح الأدب انعكاساً للمجتمعات بأسرها. إنّهُ يرى أنّ الوسيط بين الأدب والمجتمع هو الكاتب.

يُفرّق "لوكاتش" بين الانعكاس في العلم، و الانعكاس في الفن فالانعكاس في العلم، يهتم بالجزئيات و يحللها إلى عناصرها، من أجل الوصول إلى القوانين العلمية التي تتحكم في الظاهرة، لذلك فالانعكاس في العلم تجريدي لأنّه لا يهتم بالظاهرة لذاتها، بل باعتبارها تعبيراً عن الوحدات المتكررة من نفس الظاهرة، بينما الانعكاس في الفن هو عيني تشخيصي، فهو لا يسعى إلى تجريد الظاهرة من خصوصيتها، بل يتخذ من خصوصيتها وسيلة للتعبير عن الكل، و على هذا فالانعكاس في العلم مرتبط بغيره من العلوم، بينما الانعكاس في الفن، يخلق لنا عالماً مستقلاً بذاته، يمكن تفسيره دون اللجوء إلى أشياء خارجة عنه، فالعلم يحتاج لغيره، بينما الفن مكثف بذاته، فالانعكاس الفني عند "لوكاتش" هو تصوير تناقضات الواقع تصويراً أميناً، و الفن لا يبحث عن حلول للواقع مثلما يفعل العلم، إذ الفنان يُجسد رؤاه فيما يُطلق عليه "لوكاتش" «بالنمط أو النموذج».

2.3 الشكل والمضمون في العمل الفني

دحامني سعيدة

تترتب على مشكلة الإنعكاس في الفن قضية توضيح العلاقة الجدلية بين الشكل و المضمون في العمل الفني . فالشكل هو الذي يُبين لنا النسب الدقيقة بين العناصر المختلفة التي تُكوّن العمل الفني ، إذ أنّ العناصر الهامة تحتل في الشكل مساحة أكبر من العناصر الثانوية ، فالشكل الفني إذن هو الصورة النهائية للمضمون ، أمّا المضمون فإنّه يحدّد الشكل ، و الشكل مرتبط بالمضمون، كذلك يعتبر "لوكاتش" أنّ الشكل هو العنصر الاجتماعي في الأدب بمعنى أنّ الشكل هو صورة من صور المضمون الاجتماعي للمجتمع.

هنا تظهر لنا الوحدة و الاندماج بين الشكل و المضمون في الأعمال الفنية التي لا تشعر فيها بحضور مستقل للشكل ، فالشكل ليست له أهمية سوى التعبير عن موضوعية الحياة ، و بالتالي فإنّ الأعمال الفنية التي يتأكد فيها تمايز الشكل عن المضمون لا تعكس لنا الحياة بشكل راقٍ .

نقطة إنطلاق "لوكاتش" في دراسة الشكل تبدأ من تحديد المحتوى الفكري لكلّ عصر . هذا المحتوى الذي يظهر في أشكال فنية متعدّدة ، كالمحمة اليونانية مثل : "الإلياذة" و "الأوديسا" هي شكل فني يُعبّر عن المضمون الفكري و الاجتماعي للحضارة اليونانية . لذلك إذا قلنا أنّ "لوكاتش" يهتم بالشكل الفني أيضاً ، و هو في الوقت نفسه إهتمام بالمضمون الجمالي للعمل الفني . الشكل إذن و المضمون مرتبطان لدى "لوكاتش" ، بالكلية كمقولة جمالية تُهيمن على العمل الفني ، و الكلية في الفن لا تعني تفتيت العمل الفني إلى أجزاء أولية ، و إنّما تعني الرؤية الشمولية بحيث نرى الجزء من خلال الكل ، ننتقل من الخاص إلى العام .

ما الذي يحدّد أسلوب عمل فنيّ معيّن ؟ و كيف يحدّد القصد الشّكل ؟ (و نحن مهتمّون هنا بالطبع بالقصد الذي يتحقّق في العمل و ليس من الضروريّ أن يكون متفقاً مع قصد الكاتب الواعي) . و التمييز الذي يهتمنا ليس ذلك التمييز بين الحرفيّات الفنيّة الأسلوبية بالمعنى الشكلي للكلمة . فما يهمّ هو النظرة إلى العالم، أو العقائدية

البعد الفلسفي للعمل الفني عند جورج لوكاتش

التي تكمن تحت عمل الكاتب . و محاولة الكاتب أن يعيد خلق هذه النظرة إلى العالم هي ما يشكّل «قصده» و هي المبدأ التكويني الذي يركز عليه أسلوب عمل فنيّ . و إذا نظرنا إلى الأسلوب بهذه الطريقة فإنّه لا يصبح مجردّ خاتمة شكلية ، بل الأحرى أنّه متأصل في المضمون. فهو الشّكل المحدّد لمضمون محدّد . إنّ المضمون يحدّد الشّكل ، و ليس هناك من مضمونٍ إلّا و كان الإنسان ذاته نقطته البؤريّة . و مهما تنوّعت معطيات الأدب (سواء كانت تجربةً معيّنةً أو هدفًا تعليميًا) فالسؤال الأساسيّ هو ، و سيظلّ : ما هو الإنسان ؟ و هذه فاصلة : فإذا وضعنا السؤال بصيغة فلسفيةٍ مجردةٍ ، و نحينا كلّ الاعتبارات الشكلية جانبًا ، فإننا نصل – بالنسبة الى المدرسة الواقعيّة – إلى مقولة أرسطو التقليديّة التي توصّل إليها عن طريق اعتبارات مغايرةٍ للاعتبارات الجماليّة المحضّة (جورج ، 1971 ، صفحة 8).

إنه يستلزم إدراكًا فعليًا لعلاقات الحياة الجوهرية ، و الأهم من حيث الشّكل ، في مصير الأفراد و المجتمع . إلّا أنّه من الواضح على هذا الأساس أيضًا ، أنّ مجرد معرفة هذه العلاقات لا يمكن أن يكفي أبدًا . فهذه السمات الجوهرية و قوانين الحياة بالغة الأهميّة ، يجب أن تظهر في مباشرةٍ جديدة بوصفها السمات و العلاقات الشخصية الفردية لبشر محدّدين و مواقف محدّدة . و تحقيق هذه المباشرة الجديدة ، أو إعادة تمييز أو تفريد العام في الإنسان و مصيره ، هو رسالة الشّكل الفنيّ . و مشكلة الشّكل الخاصّة في الملحمة الكبيرة و التراجيديا هي إعطاء هذه المباشرة إلى كليّة الحياة ، أي إستحضار عالم من الخيال يستلزم – حتى في الملحمة بالغة الشّمول – عددًا محدودًا جدًّا من الناس و المصائر الإنسانيّة لإثارة الشّعور بكليّة الحياة . (جورج لوكاتش ، 2005 ، صفحة 162).

3.3 ما وظيفة الفن عند لوكاتش؟

إنّ الوظيفة الاجتماعية للفن التي يركز عليها "لوكاتش" في دراسته، هي نتيجة اهتمامه بالأخلاق وبالجوانب التربوية للأدب، وما دام أيضًا الفن في نظر "لوكاتش"

وانعكاس موضوعي للواقع، بالتالي يصبح الفن عنده هو صيغة من صيغ المعرفة، كما يُحدّد للفن رسالته التربوية في التعليم المباشر وله وظيفة أخرى، وهي قدرة الفن على استشراف المستقبل و التنبؤ به من خلال منظور الفنان الذي يلتقط ما هو جوهري و عام.

إنّه متأثر بعلم الجمال الهيجلي، إذ الفن عند " هيجل " هو تحقّق الروح على المستوى الحسي، بينما الفن عند " لوكاتش " هو تحقّق للإنسان حيث أنّ الفن يُجسد الوعي الذاتي للأجناس البشرية.

إذن نظرة " لوكاتش " للفن من حيث وظيفته نظرة أخلاقية، فيجعل للفن غايات أخلاقية و نفسية و اجتماعية.

كما نجد أهمية "لوكاتش" تتمثل في أنه يقدّم صورة أصلية لتطبيق المنهج الجدلي كما يظهر عند "هيجل" في الفن، و لكن هناك باحثون يعتبرون أعمال "لوكاتش" نموذجاً لعلم الجمال الماركسي .

يعدّ فن الحياة نوعاً من التطوّر في الجمالية المعاصرة، على اعتبار أنّ أجمل ما في الحياة هي الحياة ذاتها، و هنا تكمن المفارقة الجمالية بين أجمل تمثال مصنوع من الحجر أو المعدن أو أي مادة أخرى، و مقارنته بامرأة عادية لكنّها تمتلك الحياة و الحيوية، ففي الكائن الحي تكمن جمالية الحياة، وكذلك الأمر إذا ما نظرنا إلى مجموعة من النباتات أو الأشجار و الأزهار الاصطناعية المصنوعة من مواد " البلاستيك " و قارناها بمجموعة أخرى طبيعية تمتلك عبير سرّ الحياة.

من هنا جاء الفنانون إلى حقل الحياة للعبث به و اللعب بمورثاته و جيناته باستخدام تقنيات متناقضة لا تقود إلى الغاية المعرفية أو الاكتشافات العلمية، بل قد تكون لمجرّد تحويل الكائن الحي إلى مادة من المتخيل اللعبي الذي يثير الانفعال و العاطفة ، بالرغم من أنّه لا يخلو من طرافة الإبداع أو تجربة ما يمكن أن يحدث لتوسيع دائرة معرفة الحياة عبر الفن ، ولا يسعى الفنانون في هذا الاتجاه إلى منافسة

البعد الفلسفي للعمل الفني عند جورج لوكاتش

علماء الأحياء أو التجارب المخبرية للمتخصصين في علم الوراثة أو جراحة التجميل ، بل إلى وضع إنجازات مهندسي الحياة و تجاربهم في عالم الإحساس بالجمال عن طريق دمجها بالعمل الفني و إثارة المشاعر حسيا و عقليا (سائد، 2020، صفحة 55).

4. خاتمة

لقد كان الاهتمام بدراسة «الظاهرة الجمالية» قد اتخذ أشكالا عديدة: إذ أراد البعض أن يجعل منه مجرد دراسة تجريبية للأذواق، بينما أحاله آخرون إلى دراسة سيكولوجية للإبداع الفني و التذوق الجمالي، في حين ربطه غيرهم بالنشاط الحضاري و الاجتماعي، إلا أنّ أصحاب التفكير الفلسفي قد ظلوا مهتمين بالخبرة الجمالية لذاتها باعتبارها نشاطاً إنسانياً يعبر عن حرية الإنسان، و قدرته الإبداعية، و ميله المستمر نحو تجاوز الواقع.

من خلال ما سبق نصل إلى أنّ "لوكاتش" وضّح أنّ الفن انبثق من طبيعة العلاقة التي تطوّرت بين الإنسان كذات والعالم كموضوع، وقد تطوّر الإنسان في رؤيته للعالم تبعاً لتأثيره في البيئة المحيطة به وتنامي إدراكه للعالم.

كما نجد أنّ "لوكاتش" قد اعتمد على المنهج الجدلي، حيث لا يفصل الفن أو الجمال عن ارتباطه بمحتوى التجربة الإنسانية والاجتماعية، ورؤيته للفن جزء من رؤيته للعالم، وهو يضع التجربة الجمالية في موضع أسى من العلم والدين.

أمّا من حيث مقولاته الجمالية فلها أبعاد إبستمولوجية وأنطولوجية أيضاً، إنّه يؤكد قيمة الفن كفن وقيّمته كوسيلة لإدراك العالم

إن طرح لوكاتش لطبيعة العمل الفني و الجمالي يقترب كثيرا من تحليلات مدرسة فرانكفورت الألمانية (أدورنو، ماركوز، بنيامين ..الخ) الذين ذهبوا إلى القول بأن الجمال و الفن يمثلان احتجاجا على الواقع القائم، و نقدا للوضع المزري الذي يعيشه الإنسان في ظل هيمنة العقلانية الأداة التي حوّلتها إلى كائن فاقد لأبعاده الإنسانية الحقيقية. (كمال، 2013، صفحة 111).

دحامي سعيدة

5. قائمة المراجع:

- (1) جورج لوكاتش. (1971). *معنى الواقعية المعاصرة*، ترجمة أمين القيوطي. القاهرة: دار المعارف.
- (2) جورج لوكاتش. (1977). *توماس مان*، ترجمة كميل قيصر داغر، سلسلة أعلام الفكر العالمي. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- (3) جورج لوكاتش. (2005). *الرواية التاريخية*، ترجمة صالح جواد الكاظم. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- (4) كمال بومنير. (2013). *قضايا الجمالية من أصولها القديمة إلى دالاتها المعاصرة*، تقديم جمال مفرج، منتدى المعارف. بيروت: الطبعة الأولى.
- (5) رمضان بسطويس. (1991). *علم الجمال عند لوكاتش* محمد غانم.
- (6) إ.نوكس. (1985). *النظريات الجمالية*، ترجمة: محمد شفيق شيّا، (كانط، هيجل، شوبنهاور) منشورات بحسون الثقافية. بيروت: الطبعة الأولى.
- (7) سائد سلوم. (2020). *علم الجمال*، منشورات الجامعة الافتراضية السورية. الجمهورية العربية السورية.